محكم

جدل وشكوك حول الوجود التاريخي لجابر بن حيان

محمد نعيم

باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

الملخص:

مما لاشك فيه أنّ المتن المنسوب لجابر بن حيان يشكل أهم ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية في صناعة الخيمياء أو الكيمياء القديمة، لذلك قصدنا في هذا العمل إبراز وضعية الخيمياء العربية عموماً وخيمياء جابر بن حيان تحديداً، مستحضرين الشكوك والجدالات التي دارت حول وجوده الفعلي وحول أصالة متنه. فبيّنا أنّ هناك، ومنذ القديم، منكرين ومثبتين لأصالة جابر بن حيان ولصحة ما نسب إليه من رسائل، ولقد كان لكل فريق من الشواهد ما يثبت به وجهة نظره.

ثم جعلنا من أهدافنا استحضار المجهود الذي قام به المستشرق بول كراوس حيال الأعمال الجابرية، من جهة جمع رسائل جابر بن حيان وتحقيقها، ومن جهة تحديده لإطارها التاريخي، ناظرين في نتائج الأبحاث التي توصل إليها بعد أن قومها، وعرضنا النقاشات التي أثيرت حولها، سواء تلك التي تناولتها بالنقد والمخالفة أو التي تبنتها مع التعديل والتصويب. إيماناً منا، وذلك دأب العديد من الدارسين، أنّ البحث في الخيمياء الجابرية أصبح مشروطاً بالاطلاع على ما أنجزه بول كراوس، فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ أعمال بول كراوس ظلت تمثل المرشد لكل من يريد دراسة المتن الجابري، إذ لا غنى له عنها إن لموافقتها والتوسع فيها أو لنقدها ومخالفتها.

وبعد فحصنا لرسائل المتن المذكور، واطلاعنا على آراء كل من المنكرين والمثبتين لأصالته وصحة نسبته إلى صاحبه، استنتجنا أنّ هناك شخصية تاريخية اسمها جابر بن حيان عاشت في القرن الثامن الميلادي، وأنها كانت ذات صلة بالإمام الشيعي جعفر بن محمد الصادق، إلا أنّ المتن تطور في القرنين اللاحقين بفعل إضافات الشرّاح والمعجبين من أفراد الطائفة الشيعية، لكن مع كل ذلك ظل المتن الجابري يمثل وحدة منسجمة لها روحها العلمية والفلسفية وتطلعاتها الدينية والإيديولوجية، ممّا يسمح بدراسته ككل مترابط الأجزاء.

تقديم

تعتبر شخصية جابر بن حيان من الشخصيات المعتمة في تاريخ العلم العربي، إذ هناك من يشك في الوجود الفعلي لكيميائي اسمه جابر بن حيان. وحتى الذين يقرون بوجوده الفعلي اختلفوا حول سيرته، فمنهم من اعتبره من المتصوفة الزهاد، ومنهم من اعتبره من كبار السحرة في ملة الإسلام[1]. وحتى بعد تجاوز الشكوك حول وجوده الفعلي، فإنّ السؤال المتعلق بأصالة متنه؛ أي سؤال: هل الرسائل المكونة لما يسمى المتن الجابري تعود فعلاً لشخص اسمه جابر بن حيان؟ هذا السؤال بات يفرض نفسه على كل من يريد الانخراط باحثاً في تاريخ الكيمياء العربية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الشكوك ليست وليدة اليوم، فقديماً كتب ابن النديم: "وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إنّ هذا الرجل، يعني جابراً، لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال إنه ما صنف، وإن كان له حقيقة، إلا كتاب **الرحمة**، وإنّ هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها"[2]. كما أنّ هناك شهادة لأبي سليمان المنطقي المتوفى حوالي 918م تضمنتها تعاليقه، وفيها يدّعي أنّ ما يُسمى بالرسائل الجابرية منحولة وأنه يعرف صاحبها شخصياً، واسمه الحسن بن النكد الموصلي. وعن ذلك يقول: "إنّ الحسن بن النكد الموصلي كان صديقي وهو الذي كان يؤلف الكتب وينسبها إلى جابر بن حيان ويحملها إلى المتهوسين بصناعة الكيميا فيحصل بها منهم الجملة الصالحة من الدراهم"[3].

صحيح أنّ ابن النديم رفض قبول زعم المتشككين في نسبة الرسائل إلى جابر بن حيان، وقدّم في ذلك حججاً معقولة، حيث اعترض قائلاً: "إنّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب ويصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثم ينحله لغيره، إمّا موجوداً أو معدوماً، ضرب من الجهل، وإنّ ذلك لا يستمرُّ على أحد، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم"[4]. ولكن مع كل هذا، فشهادة أبي سليمان المنطقي تفرض حضورها، خصوصاً أنّ الرجل مشهود له بالعلم والتقوى ونفاذ البصيرة، فعنه يقول أبو حيان التوحيدي، مقارناً إياه مع مجموعة من رجال الفكر في زمانه ومنهم؛ مسكويه ويحيى بن عدي

---

[1]- يقول ابن خلدون: "ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة"، ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، ثلاثة أجزاء، بيت الفنون والعلوم والآداب، ط. 1، الدار البيضاء، 2005، ص 109

[2]- ابن النديم ابن النديم، أبو الفرج بن إسحاق، **الفهرست**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 2، 2006، ص 546

[3]- P. Kraus, Jabir ibn Hayyan; Contribution à l'Histoire des idées Scientifiques dans l'Islam; I, Le corpus des écrits Jabiriens, Mémoire l'institut d'Egypte, 1934, p. LXIV.

[4]- ابن النديم، **الفهرست**، ص 546

"أمّا شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر"[5]. فمن الصعب أيضاً أن نرفض شهادة من كانت هذه خصاله.

ثم إن كان ابن النديم قد تساءل عن السبب الذي يجعل رجلاً فاضلاً يتعب نفسه ويصنف كتاباً ضخماً وينسبه إلى غيره، فإنّ الجواب، حسب أبي سليمان المنطقي، هو حملها إلى المتهوسين بالكيمياء وجني الأموال من وراء ذلك، فهي صناعة على كل حال وطريقة من طرق المعاش.

وهذا جمال الدين بن نباتة المصري (686هـ- 768هـ) في شرحه لرسالة ابن زيدون قد طرق موضوع الخيمياء فأصدر الحكم التالي: "وأمّا جابر بن حيان فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد على نقله، وهو دليل على قول أكثر الناس إنه اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن ويزعمون أنه كان في زمن جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ إذ قال في كتبه قال سيدي وسمعت سيدي فإنه يعني بهذا القول جعفر الصادق رضوان الله عليه"[6].

ولعل من بين أهم ما حمل البعض على التشكيك في صحة نسبة مجموع الرسائل الجابرية إلى شخص واحد اسمه جابر بن حيان، هو عدد تلك الرسائل الذي يبدو ضخماً إلى حد كبير، فجابر بن حيان نفسه، وكما روى لنا ابن النديم، يقول: "ألّفت ثلثمائة كتاب في الفلسفة، وثلثمائة كتاب في الحل، على مثال تقاطر، وألف وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلة الحرب، ثم ألفت في الطب كتاباً عظيماً، وألفت كتباً صغاراً وكباراً، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب، مثل كتاب المجسة والتشريح، ثم ألفت كتب المنطق على رأي طاليس، ثم ألفت كتاب الزيج اللطيف، نحو ثلثمائة ورقة. كتاب شرح أقليدس. كتاب شرح المجسيطي. كتاب المرايا. كتاب الجاروف الذي نقضه المتكلمون...ثم ألفت كتباً في الزهد والمواعظ، وألفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة، وألفت كتباً في النيرنجات، وألفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة، ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة، ثم ألفت كتاباً في الصنعة يعرف بكتاب الملك، وكتاباً يعرف بالرياض"[7].

إنّ هذا النقاش والسجال الذي تناول شخصية جابر ومؤلفاته قديماً قد استؤنف مع مجموعة من الباحثين المحدثين غربيين وغير غربيين وبلغات مختلفة، وهكذا يعتبر بيرتيلو Berthelot M.من بين أهم الذين شككوا في صحة نسبة مجموعة من الرسائل الكيميائية إلى جابر بن حيان، خصوصاً تلك المترجمة إلى اللغة اللاتينية

---

[5]- ن. م، ص 39

[6]- ابن نباتة المصري، **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، (مخطوط)، موقع مخطوطات الأزهر، http: //www.alazharonline.org، ص 68

[7]- ابن النديم، **الفهرست**، ص ص 549- 550

باسم رسائل Geber، حيث إنّ فحصه الدقيق لتلك الرسائل ومقارنتها بالكتابات اللاتينية الأصيلة للقرن الثالث عشر الميلادي قد قادته إلى قناعة مفادها: أنّ تلك الكتابات اللاتينية الموقعة باسم جابر كتابات منحولة، وأنها أُلّفَت من طرف كتاب لاتينيين ينتمون إلى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلاديين[8].

1– بول كراوس وعنايته بجابر بن حيان

المستشرق بول كراوس P.Kraus هو شيخ الباحثين في جابر بن حيان دون منازع، والمجهود الذي قام به تجاه ما أصبح يُسمى متن جابر بن حيان، جمعاً وتحقيقاً ودراسة، يُعدّ عملاً استثنائياً في تاريخ الكيمياء العربية، ممّا يسمح بالقول إنّ المرور إلى البحث في المتن الجابري صار اليوم مشروطاً بوساطة بول كراوس. ولعله ليس من المجازفة في شيء الادعاء بأنّ المكانة التي يحتلها كراوس بين الباحثين في الكيمياء الجابرية شبيهة بمكانة جابر بن حيان بين الكيميائيين العرب. فكما أنّ الكيميائيين العرب اللاحقين على جابر بن حيان ظلوا يعترفون بريادته وأستاذيته في صناعة الكيمياء، فإنّ الباحثين في الكيمياء العربية لا يسعهم إلا ذكر كراوس واستحضار مجهوداته.

إننا بهذا القول لا نسعى إلى تبخيس مجهودات الباحثين الآخرين أمثال "روسكا" Ruska، و"كوربان" Corbin، و"برتلو" Berthelot، و"هولميارد" Holmyard، أو إنكار أفضالهم، فقط نريد القول إنّ هؤلاء بحثوا أبحاثاً عامة أو جزئية مفردة، فـ"روسكا" مثلاً اهتمّ أكثر بمسألة علاقة جابر بن حيان بجعفر الصادق، وبرتلو حاول أن يفصل في علاقة "Geber" الشهير عند اللاتين بالعالم العربي جابر بن حيان، هذا بالإضافة إلى بعض الهنات التي وقع فيها بعضهم[9]. كما أننا لا نريد الرفع من قيمة بول كراوس إلى مستوى التقديس

---

[8]- M. Berthelot, *la chimie au moyen age, III*, l'Alchimie Arabe, philo press, Amsterdam, 1967. p. 16.

[9]- المقصود الأخطاء التي ارتكبها "بيرتلو" والتي سجلها عليه "هولميارد" حين تناول بحوثه بالنقد هي ما يلي:

1- الباحث في تاريخ الكيمياء عند العرب يجب أن يكون خبيراً بعلم الكيمياء وملماً باللغة العربية، وقد توفرت الناحية الأولى عند بيرتيلو ولم تتوفر الثانية، فعجز عن الاطلاع بنفسه على الأصول العربية واعتمد على ترجمة غيره.

2- كان الأستاذ هودا خبيراً باللغة العربية، ولكنه كان يجهل الكيمياء ولا يعرف أصولها ومبادئها ومعنى اصطلاحاتها، ومثل هذا لا يصح الوثوق بترجمته.

3- يوجد أكثر من300 كتاب عربي في الكيمياء محفوظة في مكتبات باريس وبرلين وليدن والمتحف الإنجليزي ودار الكتب المصرية وغير ذلك، ومنها نحو 50 مؤلفاً لجابر بن حيان. وبعض هذه الكتب يربو على ألف صفحة، ككتاب نهاية الطلب للجلدكي المصري. ومن بين هذه المجموعة الضخمة انتخب بيرتيلو 13 مؤلفاً فقط يبلغ مجموع صفحاتها 205، واتخذها مرجعاً لبحوثه، ومثل هذا الأساس الضعيف لا يجوز الاعتماد عليه في الوصول إلى رأي حاسم وحكم سديد.

4- وردت أخطاء كثيرة في كتاب بيرتيلو تدل على أنه لم يستوف دراسة الكيمياء عند العرب وفيما يلي أمثلة منها:

أ- قال إنّ ابن سينا عاش في القرن الثاني عشر مع أنه ولد سنة 980 ومات سنة 1037ميلادية. كذلك اخطأ في ذكر أسماء العلماء البارزين من العرب أو الزمن الذي عاشوا فيه كالطغرائي وابن أميل التميمي وابن أرفع الرأس والغزالي. ومن المدهش أن يتوهم أنّ خالد بن يزيد هو جالود ملك بابل وأنّ سقراط هو رورروستر. وربما نشأ هذا الخطأ عن النقل في الترجمة.

ب- اعتقد أنّ جابراً لم يذكر في مؤلفاته نظرية تكوين المعادن من الزئبق والكبريت، وهذا مخالف للحقيقة لأنه فسرها في كتاب الإيضاح.

والقول: "ذلك الذي اكتمل معه الحق"، بل نقول إنّ من يريد دراسة المتن الجابري اليوم لا بدّ له من أمرين: أولاً، لا بدّ له من الانطلاق من الببلوغرافيا التي وضعها كراوس، حيث شمل عمله مجاميع المخطوطات العربية غير المفهرسة، كما أنه اكتشف ودرس الجزء الأعظم ممّا وصل إلينا من المخطوطات. ثانياً، عليه أن يستحضر خلاصات ونتائج أعمال كراوس، إن لتوضيح مضامينها والتوسع فيها، أو لمخالفتها بعد إبراز نواقصها وقصورها.

وغير خاف على كل مهتم بتاريخ الكيمياء العربية فداحة الخسارة التي عرفتها هذه الأخيرة بالرحيل المأساوي لبول كراوس، خصوصاً أنّ الراحل لم يكن قد أنهى مشروعه حول جابر، إذ كان قد عقد العزم على إنجاز كتاب ثالث كان سيتناول فيه الكتابات الجابرية في إطار الجو الثقافي الإسلامي، وكان سيدرس بشكل مفصل المذاهب الدينية المعبر عنها في المتن[10].

وإننا نوافق عبد الرحمن بدوي الرأي حين يقول: "وعناية الأستاذ كراوس بجابر عناية قديمة شاملة، حتى لنستطيع أن نقول إنّ مجهوده العلمي قد لازمته شخصية جابر كل الملازمة منذ اللحظة الأولى، حتى أصبح أعظم حجّة في كل ما يتصل بجابر. وإنّ دراساته المختلفة لتكاد تكون دائماً "على هامش جابر"، فأبحاثه في الإسماعيلية وكل المذاهب المستورة في الإسلام إنما مصدرها عنايته بجابر"[11]. ولمعرفة قيمة المجهود الذي بذله كراوس حيال جابر بن حيان ورسائله، يكفي إنعام النظر في الأعمال التي أصدرها في هذا الشأن، والتي افتتحها ببحث باللغة الألمانية سمّاه: "تهافت أسطورة جابر"[12]. نُشر في الجزء الثالث من "النشرة السنوية لمعهد الأبحاث الخاصة بتاريخ العلوم" ببرلين سنة 1930م ثم ألحق به مجلد "مختار رسائل جابر بن حيان" الصادر سنة 1935 عن مطبعة الخانجي، وفيه قام بتحقيق ونشر مجموعة من النصوص الجابرية مختلفة المضامين، وعن هذا العمل نورد شهادة عبد الرحمن بدوي الذي اشتغل بالتحقيق والتعامل مع المخطوطات حيث يقول: "وقد بذل في نشرها مجهوداً جباراً حقاً، لأنّ النسخ التي اعتمد عليها مشوهة جداً، وبعض الرسائل

ج- توهم أنّ كلمة "الأستقص" من أسماء الأعلام، في حين أنّ جابراً يقصد بالأستقصات الصفات الربع الملازمة للعناصر وهي: الرطوبة واليبوسة والبرودة والسخونة.

د- لجابر مؤلف يسمى كتاب أبي قلمون، وقد أشار إليه برتلو باسم كتاب إلى قلموك، فكأنه لم يدرك أنّ كيماويي العرب يقصدون بأبي قلمون اليشب Jasber وهو ضرب من الصوان.

5- ينسب برتلو للأوربيين بعض البحوث الكيماوية، ولم يفطن أنّ العرب توصلوا إليها من قبل، "جابر بن حيان وخلفاؤه"، سلسلة اقرأ، دار المعارف للطباعة والنشر، 1950، ص ص 64- 65

[10]- P. Kraus, I, Contribution à l'Histoire des idées Scientifiques dans l'Islam; I, *Le corpus des écrits Jabiriens*, Mémoire l'institut d'Egypte, 1934, p. XIII.

[11]- بدوي عبد الرحمن، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، 1993، ص 223

[12]- لم نعثر على هذا الكتاب بأي لغة أخرى، فاعتمدنا على الملخص الذي قدمه عنه محمد يحيى الهاشمي، في كتابه الإمام الصادق ملهم الكيمياء، ثم على المقاطع التي تضمنها كتاب فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الرابع، السيمياء - والكيمياء - النبات - والفلاحة.

قد اعتمد في نشرها على مخطوطة وحيدة، فكان عليه حينئذ أن يكمل النقص في كثير من المواضع وأن يقترح تصحيحات لا تُحصى. وَوُفِّق في هذا كله إلى حد بعيد، فاستطاع أن يقدم لنا نصاً واضحاً"[13].

ولقد أعقب كراوس عمله ذلك بدراسة في جزأين تحت عنوان جابر بن حيان مساهمة في تاريخ الأفكار العلمية في الإسلام، الجزء الأول، أضاف إليه كعنوان فرعي: المتن الجابري، أمّا الجزء الثاني فكان عنوانه الفرعي: جابر والعلوم اليونانية. وكم كان هنري كوربان محقاً حين قال إنّ تصفح تلك الأعمال يكشف "كم تطلب ذلك من تضحية وطول سنين من البحث".[14]

نعم، فإحصاء الرسائل الموجودة في مختلف المكتبات العالمية والسهر على تحقيق بعضها ومقارنتها مع ما ذكرته المصادر العربية، خصوصاً ما ذكره ابن النديم، ثم ما ذكره الكيميائيون اللاحقون، وبعد ذلك تصنيف الرسائل حسب موضوعاتها وسنوات تأليفها، كل هذا لم يكن بالأمر الهَيّن.

ثم إنّ كراوس قد تطرّق في هذا الجزء الأول للمشاكل المحيطة بشخص جابر بن حيان وبالمتن المنسوب إليه، مثل علاقة جابر بالإمام الشيعي السادس جعفر بن محمد الصادق،ثُمّ هل محتويات المتن تنتمي فعلاً إلى القرن الثامن ميلادي، حيث ما زالت العلوم في بداية انتشارها في الثقافة العربية؟ ثم مسألة الكتابات اللاتينية التي ظهرت في القرن الثالث عشر ميلادي باسم Geber وهل هي فعلاً لجابر بن حيان؟ هذا فيما يخصّ الجزء الأول من الدراسة المشار إليها، أمّا الجزء الثاني فقد عمل الرجل جاهداً على تحديد بعض موضوعات رسائل المتن ودراستها، وذلك بعد أن تطرق إلى البحث عن المصادر المباشرة لفكر جابر، فكان أن درس المكانة التاريخية للكتابات العربية المنسوبة لأبولينوس الطيواني Apolloniusde Tyane المذكور عند جابر باسم "بليناس"، وبذلك قام بتحديد فصل مهم تناول فيه الهرمسية الشرقية. وقام كذلك بدراسة أعمال الفلاسفة اليونانيين وغيرهم الذين ذكرهم جابر في متنه محاولاً ربط الأفكار الجابرية بالأصول اليونانية والإسكندرية. وهو بهذا يكون قد أبان عن وفاء والتزام صارم بالمنهج الفيلولوجي، حيث انطلق من نص رئيس، هو المتن الجابري، فحدّد مصطلحاته بشكل دقيق على مستوى المقارنة والاشتقاق، ثم بعد ذلك قام بحشد مجموعة من النصوص كشواهد، التي بمقدورها أن تعين على فهم المتن وتسليط الضوء على مناطق الظل

---

[13]- بدوي عبد الرحمن، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، ص 224

[14]- H. Corbin, le livre de glorieux de Jabir ibn Hayyan, Natural sciences in Islam, Volume, 70, collected and reprinted by F. Sezgin, Frankfurt,2002 p. 48.

فيه[15]. وقبل كل هذا، كان كراوس قد أنجز دراسة سنة 1930م سمّاها "تهافت أسطورة جابر"، وفيها تطرق إلى ما يلي:

- مصادر جابر.
- ميزة مخطوطات جابر.
- البراهين في إثبات أنّ رسائل جابر متأخرة التاريخ.
- تاريخ الإسماعيلية وتعاليمها.
- تحليل رسائل جابر على ضوء التاريخ الديني.
- الخلاصة.

بعد هذه الإشارة إلى قيمة الأبحاث التي قام بها كراوس وإلى المسار الذي سارت فيه، نود بعدها الوقوف على المحصلة لتلك الأبحاث وإبراز آثارها على البحث في فضاءات الكيمياء الجابرية.

2– أهم نتائج دراسات بول كراوس

من بين أهم النتائج التي انتهت إليها أبحاث كراوس، تأكيده أنّ ما يُسمى المتن الجابري لا يعود في تأليفه إلى شخص واحد اسمه جابر بن حيان، وإنما يعود إلى جماعة من المؤلفين ينتمون إلى جماعة دينية وسياسية. وأنّ رسائل المتن لم تؤلف في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، كما ساد الاعتقاد، وإنما ألفت في زمن متأخر عن ذلك التاريخ، حيث يقول: "إنّ الكتابات الكيميائية العربية، المنسوبة لجابر بن حيان التلميذ المفترض للأمام جعفر الصادق (المتوفى سنة 147هـ/ 764م)، كتابات منحولة يعود تاريخها إلى نهاية القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) وبداية القرن (الرابع الهجري /العاشر الميلادي)"[16].

ولقد صاغ كراوس السبب الذي جعله يصل إلى هذا الاعتقاد فيما يلي:

15- P. Kraus, II, Contribution à l'Histoire des idées Scientifiques dans l'Islam; II, *Jabir et la science Grecque*, collection (sciences et philosophie), Les belles lettres; 1986, p. X.

16- P. Kraus, *Les dignitaires de la hiérarchie religieuse selon Jabir ibn Hayyan* (Bulletin de l'institut français d'archéologie oriental, 41, pp. 83-89), Le Caire, 1942. p.11.

- إذا كانت كتب جابر أصيلة فعلينا أن ننظر إلى معالم كثيرة من تاريخ الإسلام نظرة أخرى، وبالتالي يصير جابر إذن هو الناقل للعلم اليوناني إلى العرب، وأنه كان في مطلع تاريخ الفكر الإسلامي شخصية ذات أصالة واستقلالية عظيمة وذات معرفة شاملة بالآداب اليونانية. وهو من أبدع لغة العرب العلمية قبل مترجمي القرن التاسع الميلادي العظماء بزمن طويل، وهو يمثل نموذجاً من العلماء الإسلاميين لم يعرف له بعد مثيل في هذا الزمن المبكر، فهو لا يعالج موضوعات فردية فحسب، كما يمكن أن يتوقع في القرن الثامن الميلادي، بل يقوم بعرض علمه الطبيعي في صرح من التعاليم الفلسفية تام التناسق، متماسك البنيان. وفي مجال الفقه الإسلامي- ناهيك عن الجانب الشيعي في مذهبه- نجده ينطلق من مذهب المعتزلة كأمر بدهي معروف للجميع، وذلك في زمن لم يكن فيه هذا المذهب - وفقاً للآراء السائدة إلى الآن- قد تكامل بعد. إذن علينا أن نغير علمنا في هذه النقاط وفي نقاط كثيرة أخرى إذا ما كانت كتب جابر أصيلة، أي إذا كانت من النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي. غير أنه ممّا يمكن إثباته أنّ المجموع كاملاً يعود لزمن متأخر كثيراً[17].

- المتن غير منسجم ويعرف بعض التناقضات الشيء الذي يفيد أنه تطور عبر الزمن[18].

- في المتن الجابري من الأفكار والنظريات العلمية والفلسفية ما لا يتفق مع مستوى العلوم في الثقافة العربية الإسلامية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، فالاعتقاد بأنّ شخصاً عاش في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي قد ألف آلاف الرسائل يناقض كل الأفكار التي لدينا حول تطور الأفكار العلمية في الإسلام[19]، دون الحديث عن أنّ المستوى الذي كتبت به الرسائل الجابرية يتطلب أنّ هناك استيعاباً سابقاً للعلوم اليونانية في مجموعها. فإذا كانت الرسائل الجابرية غير منحولة فذلك يعني أنّ الترجمات العربية لأعمال أرسطو والإسكندر الأفروديسي وجالينوس قد تمّت بقرن قبل التاريخ المعروف لهذه الترجمات. كما أنه لن

17- بول كراوس، التقرير السنوي الثالث، ص 27. ذكره فؤاد سيزكين، **تاريخ التراث العربي**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991، المجلد الرابع، ص 253

18- Kraus, I, *Le corpus des écrits Jabiriens*, p. XXXV.

19- من بين أهم الأدلة التي اعتمدها كراوس لإبراز أنّ زمن الرسائل متأخر على زمن القرن الثامن ميلادي، هو ما ورد فيها عن تشريح العين، حيث يقول جابر: "فأما العين فإنا نبدأ بشرح حالها من داخلها إلى خارجها ليكون التعليم على حسب التركيب. فأما الطبقات من داخل العين إلى خارجها فالطبقة المسماة الصلبة، وفوقها الطبقة المسماة المشيمية، وفوقها الطبقة المسماة الشبكية، فوق هذه الشبكية رطوبة يقال لها الزجاجية، وخلفها رطوبة ثانية يقال لها الجليدية، وخلفها رطوبة ثالثة المسماة البيضية، وما بين هاتين الرطوبتين أعني الجليدية والبيضية قشر رقيق شبيه بقشر البصلة، وهي الطبقة العنبية، وخلفها الطبقة القرنية، وخلفها الطبقة الملتحمة. فهده سبع طبقات وثلاث رطوبات كما ذكرنا" (مختار رسائل جابر بن حيان، ص 87). فبناء على هذا الوصف لطبقات العين استنتج كراوس، اعتماداً على تدقيقات (بروفر) و (مايرهوف) حول تاريخ طب العيون في الإسلام، أنّ يوحنا بن ماسويه قد أورد أربع طبقات وثلاث رطوبات، أمّا حنين بن إسحاق فقد أورد سبع طبقات وأنّ أسامي هذه الطبقات تشبه الأسامي التي أوردها جابر بن حيان، وليس من المعقول أن يكون حنين قد أخذ هذه التسميات عن ابن حيان، بل العكس هو الصحيح.

يكون الخوارزمي هو من أدخل الحساب الهندي ولا مدرسة إسحاق بن حنين هي من حدد المصطلحات العلمية في اللغة العربية[20].

- المقاطع الكثيرة المتعلقة بالدعوة السياسية والدينية المقرونة بالأفكار العلمية للكاتب تتضمن إحالات لا لَبس فيها إلى الحركة الإسماعيلية أو حركة القرامطة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في أوساط شيعية غنوصية[21]، ومن بينها مفاهيم الناطق والصامت التي تزخر بها رسائل المتن. ثم هناك فكرة الأئمة السبعة التي هي من صميم تعاليم الإسماعيلية، حيث إنّ دعاتهم كانوا يبرهنون على صحة مذهبهم أمام المريدين بقولهم إنّ هناك توافقاً بين فكرة الأئمة السبعة والأعداد السبعة في الكون، فالأفلاك السبعة ليست إلا رمزاً للأئمة السبعة.

- لكي تكون الكتابات الجابرية غير منحولة يجب أن نقبل أنها أُلفت قبل موت جعفر الصادق، أي في شباب جابر. لكن كيف يمكن تفسير أنّ مجموعة من كتبه تحتوي على رسائل مهداة إلى البرامكة[22] الذين لم يصلوا إلى السلطة إلا سنة 170هـ/ 786م؟ وخصوصاً أنّ هناك رسالة مهداة إلى جعفر بن يحيى البرمكي المزداد حوالي 150هـ/ 767م.[23]

ولعل من هذه الحجج المساقة ما يرجع إلى الباحث روسكا (Ruska) الذي صرح من قبل كراوس قائلاً: "كيف يتسنى لعربي أن يكون، نحو منتصف القرن الثامن، قادراً على إنجاز مثل هذه الأعمال، مع العلم بأنّ أقدم مؤلف عربي نعرفه في الطب والعلم الطبيعي يرجع إلى عام 850م، وأنه لم يكن هناك حتى مطلع القرن التاسع ميلادي أيّة ترجمة عربية لإقليدس أو بطليموس"[24].

لقد شكلت هذه النتائج مرجعاً للكثير من الباحثين في تاريخ الكيمياء، وعلى أساسها شيدوا أبحاثهم. فهذا بيير لوري، وإن كان يسلم بوجود شخصية جابر بن حيان التاريخية، فإنه يعتقد بناء على نتائج دراسة كراوس أنّ المتن المنسوب لجابر بن حيان تكون عبر مراحل من طرف أعضاء مدرسة كيميائية تنتمي إلى وسط شيعي

---

[20]- Kraus, I, *Le corpus des écrits Jabiriens*, p. XLVIII.

[21]- Ibid, p. XLIX.

[22]- يبدو أنّ كراوس قد عوّل في هذا على ما ذكره ابن النديم في الفهرست، ص 547، بأنّ هناك كتباً مهداة للبرامكة منها "كتب اسطقس الأس الأول، إلى البرامكة. كتاب اسطقس الأس الثاني، إليهم. كتاب الكمال هو الثالث إليهم". ثم يضيف في الصفحة 548: "كتاب إلى علي ابن سحق البرمكي... كتاب تليين الحجارة منصور بن أحمد البرمكي. كتاب أغراض الصنعة، إلى جعفر بن يحيى البرمكي." لأنه إلى حدود الآن لا وجود لأي مخطوط يحمل اسم أحد من البرامكة.

[23]- P. Kraus, I, *Le corpus des écrits Jabiriens*, p. XLVIII.

[24]- ذكره فؤاد سيزكين في **تاريخ التراث العربي**، المجلد الرابع، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991، ص 200

باطني[25]. أمّا هنري كوربان فيعتقد: "أنّ العمل الضخم الذي يحمل اسم جابر بن حيان، هو أيضاً هرمسي في عدد من مصادره. وليس لنا إلا أن نحيل إلى العمل المدهش الذي كرّسه المأسوف عليه "بول كراوس"، والذي بقي لمدة طويلة المرشد في الدراسات الجابرية"[26].

3- فؤاد سيزكين ونتائج أبحاث كراوس

ليس يخفى عن كل ناظر في الأبحاث التي اعترضت على نتائج أبحاث كراوس وحاولت نقدها أنّ نقدها كان جزئياً وغير دقيق في كثير من الأحيان، كما أنّ أصحابها قد اعتمدوا اعتماداً شبه كلي على أعمال كراوس نفسها، خصوصاً فيما يتعلق بمضامين رسائل المتن. فالباحث فؤاد سيزكين، الذي نعتبره أهم من ناقش نتائج دراسات كراوس بعمق وبشكل مفصل، حيث قام بعرض كل الحجج التي ساقها كراوس للتدليل على عدم أصالة المتن الجابري، ثم عمل على مناقشة كل واحدة منها على حدة، فإنه في حديثه عن جابر وكيميائه لجأ إلى الاقتباس بشكل رئيس من الدراسة التي أنجزها كراوس لجابر ورسائله، حيث وصفها بأنها "الدراسة التي عرضت فيها أهمية كتب جابر بطريقة فذة، لكنها لم تكتمل بسبب النهاية المأساوية المبكرة لحياة المؤلف"[27]، ثم يضيف: "لقد تقيدت خلال تعداد وسرد مؤلفات جابر بالببلوغرافيا الرائعة التي عملها بول كراوس، إذ شمل عمله مجاميع المخطوطات العربية غير المفهرسة، كما أنه اكتشف ودرس الجزء الأعظم ممّا وصل إلينا من المخطوطات. لقد رتبت المخطوطات التي عرفها وفقاً للتسلسل الذي وضعه هو...، واقتبست الكثير من النتائج الفرعية لدراسته المتعلقة بكتب جابر حتى يكوّن القارئ فكرة عامة عن المجموع، أمّا بالنسبة للقارئ ذي الاهتمام بذلك فلا غنى له عن الرجوع إلى الببلوغرافيا الكراوسية"[28].

أمّا فيما يتعلق بالاعتراضات التي أقامها سزكين على حجج كراوس القاضية بأنّ رسائل المتن منحولة، وأنها تنتمي إلى مدرسة كيميائية تكونت عبر قرن من الزمن، فإننا نقدم أهمها كالتالي:

فيما يتعلق بحجة كراوس الأولى بأنّ رسائل المتن منحولة ولا يمكن أن تكون لمؤلف واحد على أساس أنّ هناك تناقضاً بين رسائله، فإنّ سيزكين قد اعترض على ذلك بقوله: "إنّ ظاهرة التطور هذه، سواء أكانت تصحيحاً أم نقضاً أم إكمالاً لما سبق من كتب، لا يمكن لها أن تكون بحال من الأحوال حجة في إثبات تعدد

[25]- P. Lory, *dix Traités d'alchimie, les Dix premiers livres de la Soixante dix de Jabir Ibn Hayyan*, Sinbad, paris, 1983, p. 73.

[26]- H. Corbin, *Histoire de la philosophie islamique*, Histoire de la philosophie islamique, Gallimard, 1986, p. 187-188.

[27]- فؤاد سيزكين، **تاريخ التراث العربي**، المجلد الرابع، ص 215

[28]- ن. م، ص 306

المؤلفين، حيث إننا نلاحظ هذه الظاهرة في تاريخ العلم وفي مؤلفات كثير من المؤلفين، فبالرغم من إعادة وتصحيح أفكار واستبدالها بغيرها، فإنّ مما يذهلنا كون المؤلف يبرز في كل الكتب باستقلالية نادرة لا تغير في موقفه الناقد ولا في تمكنه التام من الموضوع والمادة"[29].

وبالنسبة لفكرة كراوس التي يدّعي فيها أنه سيترتب على التسليم بأصالة كتب جابر بن حيان الرجوع بتاريخ الترجمات العربية للكتب اليونانية إلى تاريخ أبعد من ذلك المسلم به لترجمتها أي بقرن قبل ذلك، فإنّ سيزكين يرد ذلك معتقداً أنّ "كراوس ينطلق من اعتبار بعض الترجمات التي وصلت إلينا (الترجمات التي هي من القرن الثالث/التاسع) هي الترجمات الوحيدة للكتب المذكورة إلى اللغة العربية. ويتضح، بما فيه الكفاية، من خلال بيانات ابن النديم (وهي ليست وافية تماماً) ومن خلال ما وصل إلينا من مادة أنّ كتباً يونانية كثيرة ترجمت إلى اللغة العربية مرتين أو ثلاث مرات. والكثير من الترجمات الأولى يعود إلى القرن الثاني/ الثامن، ومن ذلك بخاصة كتب أرسطوطاليس جالينوس"[30].

أمّا فيما يخصّ فكرة كراوس التي تقول: إنّ فقرات كثيرة في المتن الجابري تتضمن إشارات لا تقبل التأويل، تتعلق بالحركة الإسماعيلية أو القرمطية، تلك الحركة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث/التاسع في الأوساط الشيعيّة الغنوصية، فإنّ سيزكين يعترض عليها بقوله: "يتضح من هذه الفكرة بمفردها أنّ كراوس يتحدث عن ذروة في تطور الحركة القرمطية (من الناحية الفكرية)، تلك الذروة التي تلاحظ بالفعل في القرن الثالث/ التاسع. إلا أنه من غير المفهوم البتة، لماذا خلط كراوس المرحلة المبكرة من مراحل الإسماعيلية والقرامطة، تلك المرحلة التي تحدث عنها أهل الاختصاص إبّان زمانه بوضوح تام، خلطها مع مرحلة متأخرة عليها"[31]، ثم يضيف: "يفتقر الرأي الذي يفيد أنّ جابراً يفضل العلم الباطن على العلم الظاهر يفتقر إلى أي أساس، ولقد سبق وذكر من قبل أنّ جابراً لا يفضل العلم الباطن على علم الظاهر"[32].

أمّا عن قول كراوس الذي يتساءل فيه كيف تكون رسائل المتن ألفت في زمن جعفر الصادق، وفي الوقت نفسه منها ما هي مهداة إلى البرامكة، فيرد عليه سيزكين بقوله: "والأمر في حقيقته هو أنّ الرسائل الأولى والثانية، والثالثة بعد المائة، والسادسة بعد المائة، والسابعة بعد المائة المذكورة في فهرس مجموع الـCXII كتاباً، الوارد عند ابن النديم أنّ هذه الرسائل مهداة، كما يبدو، للبرامكة. عنوان الرسالة الأولى: "كتاب

---

[29]- ن. م، ص 295
[30]- ن. م، ص 255
[31]- ن. م، ص 261
[32]- ن. م، ص 272

أسطقس الأس الأول إلى البرامكة" وقد أكد كراوس أنّ هذا العنوان لم يوثق في أي نسخة من النسخ التي وصلت إلينا، فالعنوان هو إمّا "كتاب أسطقس الأس" أو "كتاب أسطقس الأس على رأي الفلاسفة، وهو الأول من الثلاثة". وأهم من ذلك بكثير بلا شك أنّ العنوان جاء في الكتاب ذاته وفي كتب أخرى لجابر "كتاب أسطقس الأس"، وأنه ليس هناك أي كلام عن البرامكة. ولا يمكن للعنوان عند ابن النديم أن يكون ذا وزن أكبر من العناوين الأخرى للنسخ المحفوظة وللاقتباسات في كتب أخرى للمؤلف ولمحتوى الرسالة. وقد يكون الإهداء "إلى البرامكة أضيف، في وقت متأخر"[33].

وهكذا يخلص سيزكين بعد اعتراضاته هذه إلى القول: إنّ جابر بن حيان شخصية حقيقية لا خرافية كما يرى البعض بناء على نظرية كراوس، وإنّ المتن الجابري أصيل، فتلك الكتب الخيميائية التي ألفها جابر تصدر عن شخصية علمية عظيمة، يستطيع الباحث أن يرى فيها شخصية مماثلة لشخصية أرسطو. والكتب التي تحمل اسم جابر مؤلفاً لها لا يمكن أن تنسب إلى مدرسة إسماعيلية عاش أصحابها المزعومون في أواسط القرن الثالث إلى أواسط القرن الرابع. وليس في تاريخ الإسلام أي إشارة إلى تصور مثل هذه المدرسة. إنّ سيزكين متمسك بفكرة أصالة المتن الجابري، وأنّ ذلك المتن رغم تنوعه وضخامته يعود في تأليفه إلى جابر بن حيان الذي عاش في القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي، ويتميز هذا القرن بأنه شَكَّلَ لحظة استيعاب علوم الأوائل، اللحظة التي لا يُعرف عنها إلا النذر القليل جداً، فضلاً عن ذلك، فإنّ لمجموع رسائل المتن بما تتصف به من جوانب كثيرة وأصالة وقدرة على الإنتاج مذهلة، أهمية عظيمة جداً بالنسبة لعرض وإيضاح المنجزات العلمية في الحقبة الواقعة بين زمن ازدهار العلم اليوناني وبين جابر. ومن الظواهر التي تميز المتن عن منجزات القرون اللاحقة، ممّا يعني أنّ مصادر جابر كانت في معظمها من تلك الحقبة، ولهذا كانت في غالبها كتباً مزيفة لم يرجع فيها إلى المصادر اليونانية الأصيلة بشكل رئيس، إلا في أحدث كتبه الأخيرة[34].

4- تقويم اعتراضات سيزكين

ويقتضي المجال أن نبدي ملاحظاتنا على بعض هذه الاعتراضات، ونبين قيمتها على ضوء ما نتوفر عليه من معطيات سواء في المصادر التاريخية أو من داخل رسائل المتن الجابري، ونحاول تقويم حجج الطرفين: سواء حجج كراوس أو حجج سيزكين.

[33]- ن. م، ص 259

[34]- ن. م، ص 299

صحيح أنّ اعتراضات سيزكين تتصف بالحماس والجرأة، ولكنها مع ذلك تفتقر إلى صلابة الدليل، تلك الصلابة التي نلمسها بجلاء عند كراوس، فيكفي أن نتفحص أي عمل من أعماله لنلاحظ زخم الحجج والشواهد التي يسوقها لتدعيم أي فكرة يطرحها. فقول سيزكين مثلاً إنّ كراوس لم يميز بين الحركة الفكرية والسياسية للطائفة الإسماعيلية هو قول فيه كثير من الغلو وقليل من الدقة والتمحيص، خصوصاً أنّ رسائل المتن تشير إلى الأفكار الإسماعيلية في قمة تطورها وليس في بداية تكون المذهب كما يزعم سيزكين، بل إنّ جابراً يورد القرامطة بالاسم في كتاب "إخراج ما في القوة إلى الفعل"[35]، ويذكر أيضاً أنه أفرد لهم كتاباً وضّح فيه آراءهم. ولا يخفى أنّ الشواهد التاريخية في صف أطروحة كراوس، حيث تشير إلى أنّ بداية الدعوة القرمطية كانت في أواخر القرن الثالث هـ/التاسع م، فالطبري يخبرنا أنّ بداية الحركة القرمطية كانت سنة 278هـ مع قدوم رجل اسمه حمدان قرمط، حيث يقول: إنه في عام 278هـ "وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل يسمى حمدان ويلقب بقرمط. ثم فشا أمر القرامطة ومذهبهم، وكثر بسواد الكوفة"[36].

أمّا قول سيزكين إنّ ابن حيان لم يفضل العلم الباطن على العلم الظاهر، وإنّ ذلك التفضيل لا أساس له، فمن البيّن أن نفي سيزكين هو الذي لا أساس له، ويكفي الرجوع إلى كتاب الحدود للتحقق من المكانة التي يوليها جابر لعلم الباطن وتفضيله على علم الظاهر، حيث يقول: "وحدّ علم الظاهر أنه العلم بالسنن العامية على الأمر الكلي اللائق بالطبيعة والعقول والنفوس الطبيعية. وحد علم الباطن أنه العلم بعلل السنن وأغراضها الخاصية اللائقة بالعقول الإلهية"[37]. ثم إنّ جابراً في كتاب الاشتمال يقيم تمييزاً بين صاحب الظاهر وصاحب الباطن فيقول: "صاحب الظاهر لا يمكنه أن يكون مجتهداً ولا متحيزاً إلى قول دون قول ورأي دون رأي، لأنّ الاجتهاد والتحيز إنما يكون من علم وبصيرة وذلك محال في صاحب الظاهر"[38]. إنّ هذا القول يبين بشكل لا لبس فيه أنّ ابن حيان ينتصر للباطن على الظاهر، حيث ينظر لصاحب الظاهر كشخص عري من العلم والبصيرة، أي أنه واحد من العامة "الأضداد" الذين ينعتهم بأحط النعوت مثل قوله: "الأضداد والسفلة والأراذل والسفهاء المظلمي النفوس الأقذار العقول"[39].

---

[35]- بول كراوس، **مختار رسائل جابر بن حيان**، جمع وتحقيق ونشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1934، ص 72

[36]- الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، د.ت، ج. 10، ص 25

[37]- بول كراوس، **مختار رسائل جابر بن حيان**، ص 105

[38]- ن. م، ص 553

[39]- ن. م، ص 646

ثم إنّ اعتراض سيزكين على مسألة إهداء جابر بن حيان إحدى رسائله إلى البرامكة، وزعمه أنها قد تكون أضيفت لاحقاً، فإنّ ذلك مجرد تخمين من طرف سيزكين وينقصه الدليل، خصوصاً أنّ بعض رسائل المتن تظهر تلك الرابطة المزدوجة بين جابر وجعفر الصادق من جهة، وجابر والبرامكة من جهة ثانية، مثل قوله: "دعاني يوماً من الأيام في شهر رمضان في اليوم السابع منه جعفر بن يحيى ويحيى معنا وخالد معنا أخو جعفر"[40] وفي الكتاب نفسه يقول: "وكنت يوماً خارجاً من منزلي قاصداً دار سيدي جعفر صلوات الله عليه"[41].

أمّا قول سيزكين إنّ كثيراً من الكتب اليونانية قد ترجم إلى العربية في القرن الثاني/ الثامن، مما يعني أنه يجب مراجعة تاريخ ترجمة العلوم اليونانية إلى اللغة العربية، والتسليم بأنّ المتن الجابري يعود إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وأنّ ما ورد في المتن من نظريات فلسفية ومفاهيم علمية يعود فعلاً إلى القرن الثامن، فيبدو أنّ فيه كثيراً من المبالغة وتعوزه الأدلة المقنعة، وأنّ سيزكين لم يقدم ما يعضد به زعمه. فحتى لو سلمنا بأنه بالفعل كانت هناك ترجمات للكتب العلمية والفلسفية في القرن الثاني هـ/ الثامن م، وهو أمر يحتاج إلى الكثير من التمحيص[42]، فذلك لا يعني أنّ زمن الترجمة وزمن الإبداع متلازمان، لأنّ الإبداع يقتضي أن يكون مسبوقاً بلحظة استيعاب، وهي لحظة في كل الأحوال لن تكون قصيرة.

5- اعتراضات نعمان الحق

بعد فؤاد سزكين نجد أيضاً سيد نعمان الحق في كتابه: "أسماء، طبائع، وأشياء"، قد أقام مجموعة من الاعتراضات على الحجج التي قدمها كراوس، فعن قول كراوس إنّ العدد الضخم من الرسائل المقدر بـ 2982 رسالة لا يمكن أن يكون من إنتاج شخص واحد عاش في القرن الثامن ميلادي، لأنّ ذلك يناقض كل ما لدينا من أفكار حول تطور الفكر العربي في تلك المرحلة، يجيب "نعمان الحق" إنّ ما قدمه كراوس من حجج صحيح من الناحية النظرية، لكنه في الوقت نفسه يتساءل هل فعلاً يتكون المتن الجابري من 2982 رسالة؟ ثم ما حجم تلك الرسائل؟[43]

---

[40]- ن. م، ص 306

[41]- ن. م، ص 305

[42]- إذا كانت بعض الترجمات تمّت فعلاً في القرن الثاني/ الثامن، فمن الواضح أنها كانت مقتصرة على التنجيم والفلك وبعض الأعمال الرياضية. وعموماً وكما لاحظ ديمتري غوتاس "أنّ القسم الأعظم من الكتب اليونانية والعلمية والفلسفية نقلت إلى السريانية على أنّ ذلك كان ناحية من حركة الترجمة العباسية خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي"، غوتاس، ديمتري، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة وتقديم، نقولا زيادة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص 60

[43]- Sayed Nomanul Haq, *Names, Natures, and Things, The Alchemist Jabir ibn Hayyan and his kitab al-ahjar* (book of stones), Kluwer Academic Publishers, London / Dodrecht, 1994, p.11.

حسب نعمان الحق، فإنه عند التدقيق في مسألة ضخامة المتن سيكون الأمر مخالفاً لما اعتقده كراوس. وهكذا فإنّ ترقيم الكتابات الجابرية مختلف تماماً عن الترقيم الذي وضعه كراوس، فعلى سبيل المثال انتقل كراوس في ترقيمه لرسائل جابر من رقم 500 إلى 530 دون إظهار أي شيء بينهما، والرقم 532 في إحصاء كراوس متبوع بالرقم 553 والفاصل بين 533 و552 غير مبرر، كما لا توجد عناوين للأرقام من 554 إلى 629 أو تبريرات للأرقام من 1751 إلى 1777 وهكذا دواليك[44].

إذن فسيد نعمان الحق يرى أنّ حساب كراوس لرسائل جابر مليء بالفراغات الكبيرة، والذي اعتمد في تقديمه إمّا على الإشارات الداخلية لرسائل المتن أو على التقديرات الاعتباطية لكتاب التراجم العرب. وهكذا فإذا ما تمّ حذف هذه الفراغات فسيصبح عدد عناوين أعمال جابر حوالي 500 عنوان، وهو عدد أقل بكثير من العدد 2982 الذي قدّمه كراوس.

كما لاحظ أيضاً أنّ كراوس عمل على اعتبار كل جزء أو قسم من رسالة أو كتاب لجابر بن حيان عملاً مستقل بذاته؛ وهكذا فـ"كتاب الجمل العشرين" تمّ احتسابه كعشرين كتاباً، وعُدّ "كتاب الأربعين" المفقود على أنه أربعون كتاباً، واعتبر كتاب "الأحجار على رأي بليناس" المقسم إلى أربعة أجزاء على أنه أربعة كتب كل كتاب مستقل بذاته، وكذلك الشأن مع الأجزاء الثلاثة من "كتاب أسطقس الأس" حيث احتسبت ثلاثة مؤلفات، والأمثلة على هذا كثيرة جداً. وكل هذا يوضح أنّ المجموع 2982 الذي حدده كراوس للأعمال الجابرية ليس فقط مضخماً ومبالغاً فيه، بل يكشف أيضاً عن منهجية في الترقيم غير دقيقة.

ويرى أيضاً أنّ مجموعة من الأعمال الجابرية التي تشكل رسائل مستقلة تماماً تحتل فقط ورقة في المخطوطات. فمجموع "كتاب السهل" يتكون من فقرة فقط تبدأ وتنتهي في نصف واحد من الورقة 64 من مخطوطة باريس 5099. ويشغل كتاب النور ورقة واحدة فقط من المخطوطة نفسها. وهذه المخطوطة الباريسية تحتوي أيضاً على "كتاب القادر" الذي يشغل النصف الثاني من الورقة 66 والنصف الأول من الورقة التي تليها 67. وفي مخطوطة باريس 2606 مثلاً فإنّ طول كل من "كتاب الواحد الكبير" و"كتاب الواحد الصغير" هو بالتتابع كالتالي: ثلاث ورقات في الأول وورقتان ونصف في الثاني. إنّ معظم الرسائل في المتن صغيرة جداً. فـ"كتاب السبعين" يتألف من 25 ورقة في مخطوطة جار الله 1554، كل ورقة من حجم 19.5 سم على 13.5 سم ومتكونة من خمسة عشر سطراً، وهذا يعني في المتوسط أنّ طول كل رسالة في هذه المجموعة حوالي ثلاث ورقات. والشيء نفسه بالنسبة لمجموعة الخمسمائة، فإذا تمّ جمع كل الأوراق من

44- Ibid Idem.

مخطوطات مختلفة فإنّ المجموع سيكون بالكاد حوالي 120 كتاباً، وهذا يعني أنّ "كتاب الخمسمائة" لا يحتوي سوى على خمسمائة ورقة[45].

تجب الإشارة هنا إلى أنّ جوهر النقد الذي وجهه سيد نعمان الحق إلى الدراسات التي أنجزها بول كراوس يمثل أساساً في مراجعة فكرة ضخامة المتن الجابري، هذه الضخامة التي اعتبرها الكثيرون حجة قوية تشهد بعدم أصالة المتن المذكور، حيث يعتقدون أنه من المتعذر على كاتب بمفرده أن ينجز بمفرده هذا العدد الضخم من التآليف، أمّا ما عدا هذه المسألة فنجد أنه قد تبنى الانتقادات نفسها التي بلورها فؤاد سيزكين.

خاتمة

وعموماً ورغم كل هذه الشكوك المثارة حول جابر وأصالة متنه، فإنّ الكثير من المصادر العربية القديمة تؤكد على وجود رجل اسمه جابر بن حيان، فابن النديم يقول: "هو أبو موسى أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي".[46] ويقول عنه صاعد الأندلسي الذي توفي سنة 1070م "جابر بن حيان الصوفي كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً في صناعة الكيمياء وله فيها مؤلفات كثيرة ومصنفات مشهورة. وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام"[47]. وأيضاً نجد القفطي المتوفى عام 1248م يؤكد على مسألة تصوف جابر حيث يقول: "جابر بن حيان الصوفي الكوفي"[48]، أمّا حاجي خليفة فيعتقد أنّ ابن حيان أول من أشهر علم الخيمياء وأذاعه بين الناس، وأنّه كان صوفياً ومن تلامذة "خالد بن يزيد"، لذلك قيل:

حكمة أورثناها جابـــــر عن إمام صادق القول وفي
لوصي طاب في تربتـه فهو كالمسك تراب النجف[49]

واستناداً إلى المصادر العربية القديمة والدراسات الغربية الحديثة يمكن أن نكوّن صورة عن جابر كالتالي: هو أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الكوفي الطوسي، ولد بطوس وهو من أصول عربية، ينتمي إلى قبيلة الأزد في اليمن التي استوطن عدد منها الكوفة، لذلك يقال جابر بن حيان الأزدي الكوفي، وقد كان أبوه

[45]- Ibid., 12.

[46]- ابن النديم، **الفهرست**، ص 546

[47]- صاعد الأندلسي، **طبقات**..، ص 153

[48]- القفطي، **تاريخ الحكماء**، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مؤسسة الخانجي، مصر، د. ت، ص 161

[49]- حاجي، خليفة، **كشف الظنون**، ص 1531

حيان من شيعة بني العباس، حيث أرسل إلى خرسان من أجل الدعوة لهم فيها فكان أن استقر به المقام بطوس، المكان الذي ولد فيه جابر، أمّا لقبه الصوفي فيعني، حسب هولميارد، أنه واحد من أفراد جماعة المتصوفة في الإسلام[50].

وتذكر المصادر العربية أيضاً أنّ حيان والد جابر كان واحداً من ركائز الدعوة العباسية والحاملين لواءها في خراسان، فأبو حنيفة الدينوري يخبرنا عن صاحب الدعوة أنه "محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان مستقره بالشام... وكان أول من قدم إليه من الشيعة ميسرة العبدي وأبو عكرمة السراج ومحمد بن خنبس وحيان العطار"[51]. وقد وُزّع هؤلاء الدعاة على مراكز مختلفة فكانت أرض خرسان من نصيب حيان العطار، ويضيف الدينوري "ثم وجه ميسرة العبدي ومحمد بن خنبس إلى أرض العراق، ووجه أبا عكرمة وحيان العطار إلى خرسان"[52]. وفعلاً لقد أخذت الدعوة في الانتشار، إذ أنّ الرجلين جعلا يسيران في أرض خراسان يدعوان الناس إلى بيعة محمد بن علي ويزهدانهم في سلطان بني أمية معلنين للناس خبث أمرائهم، بالطعن في سيرتهم والتبرم من جورهم. فكان أن استجاب لهما أناس كثير بخراسان[53].

وبعد أن انتشر أمر الدعاة وبدأت تظهر آثار دعوتهم، أجرى بنو أمية تعديلات سلطوية، حيث إنّ يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة عن العراق وخراسان واستعمل مكانه خالد بن عبد الله القسري، واستعمل خالد أخاه أسد بن عبد الله على خراسان فانتهى خبر أبي عكرمة وحيان إلى أسد بن عبد الله فأمر بطلبهما فأخذا، وأتي بهما فضربت أعناقهما وصلبا[54]، بعد ذلك رجع أهل حيان إلى الكوفة حيث عاش جابر مدة معينة.

أمّا عن سنة ولادته فليس هناك قول فصل، فحسب هولميارد يكون زمن ولادة جابر ما بين 721م و722م، وأنّ سنّه كان ما بين 40 سنة و45 حين توفي جعفر الصادق سنة 765م [55]. أمّا بيير لوري فيذهب إلى القول إنّ جابراً ولد في بداية القرن الثامن الميلادي في وسط شيعي معادٍ للأمويين، وقد عاش في المدينة وتتلمذ على يد جعفر الصادق، حيث أخذ عنه الأساسي من علم الخيمياء. ثم عاش مدة في بغداد، في محيط العائلة البرمكية إلى أن حلت بهم النكبة سنة803م، فلجأ إلى الاختفاء إلى أن توفي زمن خلافة المأمون حولي

---

[50]- E. J. Holmyard, *Alchemy*, op cite, p. 69.

[51]- الدينوري، **الأخبار الطوال**، بريل، ليدن، 1888، ص 334

[52]- ن. م، ص 335

[53]- ن. م، ص 335

[54]- ن. م، ص 336

[55]- E.J. Holmyard, *Alchemy*, p. 32.

سنة815م[56]. ويصرح فؤاد سيزكين قائلاً: "تتباين الأخبار والظنون بالنسبة لسنة وفاة جابر، التي لم تتحدد بعد، فالجلدكي الصنعوي (743هـ/ 1342م) يذكر أنّ جابراً عُمّر أكثر من تسعين عاماً وأنه، بعد انتزاع السلطة من البرامكة ثم نكبتهم (عام 803/187) أقام في الكوفة متخفياً حتى عهد حكم المأمون (198هـ/813م). وتفيد مخطوطة من مخطوطات "كتاب الرحمة" لجابر أنّ هذا الكتاب وجد تحت وسادة رأس المؤلف الذي توفي في طوس عام 200هـ/815م"[57].

انطلاقاً من هذه المعطيات نخلص إلى القول: إنّ جابر بن حيان شخصية تاريخية لا وجود لمبرر معقول لإنكار وجودها، وإنّ الرجل من أصول عربية، انتمى إلى المذهب الشيعي في بداية تشكله، ممّا يعني أنّ صلته بالإمام الشيعي جعفر الصادق مسألة لا مراء فيها. ويذكر هو نفسه أنه تلقى العلم من ثلاث شخصيات، هي: شخصية روحية وتتمثل في الإمام جعفر بن محمد الصادق، وشخصيتان علميتان ويمثلهما كل من الراهب تلميذ الخيميائي مريناس، وذلك الذي يدعوه بأستاذه حربي الحميري[58].

لكن تبقى مسألة انتماء هذا المتن الضخم إلى جابر بن حيان مسألة محيرة فعلاً، فلا أحد يستطيع إنكار أنّ رسائل المتن تشكل وحدة منسجمة. صحيح أنّ في بعض الرسائل أفكاراً تنتمي إلى زمن متأخر على القرن الثامن الميلادي، ممّا حمل البعض، وعلى رأسهم بول كراوس، على إصدار حكم مغال إلى حد ما؛ وهو أنّ الرسائل الجابرية في مجموعها منحولة، وأنها تعود في تأليفها إلى جماعة سياسية ودينية تَكَوَّن أفرادها خلال قرنين من الزمن. وواضح أنّ هذا الحكم مسنود بالشواهد من الرسائل الجابرية نفسها، لكن السؤال هو ما العمل مع الذكر المتكرر لجعفر بن محمد الصادق؟

إذن لا بدّ من الاعتراف بأنّ جابر بن حيان شخصية تاريخية عاشت في زمن الإمام الشيعي جعفر بن محمد الصادق، وأنه ألف مجموعة من الرسائل الخيميائية متعددة المضامين وذات نزعة دعوية للطائفة الشيعية في بداية تشكلها، ويبدو أنه من الراجح أن يكون جابر قد ترك مجموعة من المريدين والأتباع الذين جمعوا رسائله وحفظوها وتوارثوها جيلاً بعد جيل، وتابعوا نهجه بالتصرف في رسائله شرحاً وإضافة، بل عملوا على

---

[56]- P. Lory, *Alchimie et mystique en terre d'Islam*, Collection (Islam. Spirituel), Verdier, 1989, p. 14.

[57]- فؤاد، سيزكين، **تاريخ التراث العربي**، المجلد الرابع، ص 198

[58]- بعد الإمام جعفر بن محمد الصادق نجد جابراً يستحضر فضل أستاذه حربي وأيضاً فضل راهب أحجم عن ذكر اسمه، فقط أخبرنا أنه كان قد خلف الخيميائي مريناس الذي يفترض أنه من علم خالد بن يزيد أصول الصنعة، حيث يقول: "واعلم أنّ هذا الراهب كان قد بلغني أمره زماناً بعد صحبتي لأستاذي حربي قدّس الله روحه، فكنت مشتاقاً إلى رؤيته، وذلك أنه بلغني عنه أنه أخذ العلم عن مريناس الذي كان خالد بن اليزيد أنفذ في طلبه ووضع عليه العيون والأرصاد حتى أخذه من طريق بيت المقدس"، **مختار رسائل جابر بن حيان**، ص 529

تأليف رسائل أخرى لها مضامين سياسية ودينية وفلسفية تعبّر عن زمن متأخر عن الزمن الذي عاش فيه جابر وجعفر الصادق.

بهذا يمكن القول إنّ المتن الجابري في مجموعه أصيل ومنحول في الآن نفسه، فهو أصيل لأنه في معظمه يعود لشخص جابر بن حيان ومحافظ على أسلوبه وروحه الفكرية والإيديولوجية، ومنحول لأنه فعلاً عرف إضافات من طرف الأتباع والمريدين من أبناء الطائفة الشيعية الذين حافظوا على الوقار والإجلال الذي كان يكنه شيخهم جابر بن حيان لجعفر الصادق، وهذه الإضافات تعكس بشكل لا لبس فيه أفكار الجو السياسي والفكري والحضاري لزمن متأخر عن الزمن الذي عاش فيه جابر بن حيان وأستاذه جعفر الصادق.

مسرد المراجع باللغة العربية:

- الأندلسي، صاعد، **طبقات الأمم**، تح، ح. بوعلوان. دار الطليعة، بيروت، 1985

- بدوي، عبد الرحمن، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، 1993

- ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، ثلاثة أجزاء، بيت الفنون والعلوم والآداب، ط. 1، الدار البيضاء، 2005

- خليفة، حاجي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

- الدينوري، أحمد بن داود، **الأخبار الطوال**، بريل، ليدن، 1888

- سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991

- الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، د. ت.

- غوتاس، ديمتري، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة وتقديم، نقولا زيادة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، **تاريخ الحكماء**، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مؤسسة الخانجي، مصر.

- كراوس، بول، مختار رسائل جابر بن حيان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1934

- ابن نباتة، جمال الدين المصري، **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، (مخطوط)، موقع محطوطات الأزهر: http://www.alazharoline.orge

- ابن النديم، أبو الفرج بن إسحاق، **الفهرست**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 2، 2006

مسرد المراجع باللغة الأجنبية

- BERTHELOT. M. *La chimie au moyen age*, tome, III, l'Alchimie Arabe, philo press, Amsterdam, 1967.

- CORBIN, Henry, *Cyclical Time and Ismaili Gnosis*, Rotled, 1983.

- Histoire de la philosophie islamique, Gallimard, 1986.

- *Le livre du Glorieux de Jabir ibn hayyan*, Natural sciences in Islam, Volume, 70, collected and reprinted by F. Sezgin, Frankfurt, 20020.

- HOLMYARD. E. J. *Alchemy*, Dover publications, 1990.

- KRAUS, Paul. *Jabir* ibn Hayyan; Contribution à l'Histoi idées Scientifiques dans l'Islam; I, *Le corpus des écrits Jabiriens*, Mémoire l'institut d'Egypte, 1934.

- Jabir ibn Hayyan; Contribution à l'Histoire des idées Scientifiques dans l'Islam; II, *Jabir et la science Grecque*, collection (sciences et philosophie), Les belles lettres; 1986.

- Les dignitaires de la hiérarchie religieuse selon Jabir ibn Hayyan (Bulletin de l'institut français d'archéologie oriental, 41, pp. 83-89), Le Caire, 1942.

- Jabir ibn Hayyan, essai sur l'histoire des idées scientifiques dans l'Islam, VI, textes choisis, el- khandgi, le Caire, 1953.

- LORY, Pierre. Alchimie et mystique en terre d'Islam, Collection (Islam. Spirituel), Verdier, 1989.

- Dix traités d'Alchimie, les Dix premiers livres de la Soixante dix de Jabir Ibn Hayyan, Sinbad, paris, 1983.

- NOMANUL. H. S. Names, Natures, and Things, The Alchemist Jabir ibn Hayyan and his kitab al-ahjar (book of stones), Kluwer Academic Publishers, London / Dodrecht, 1994.


MominounWithoutBorders


@ Mominoun_sm


Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com